



كتب المؤرخ السوري الشهير محمد كرد علي عن الأقاليم السورية التي كانت تعاني من التهميش كما لم يكتب أحد قبله من رحالة وصحافيين البلاد، علماً أن هذه المناطق أشبعت بحثاً ودرساً من جانب الرحالة والمستكشفين الغربيين

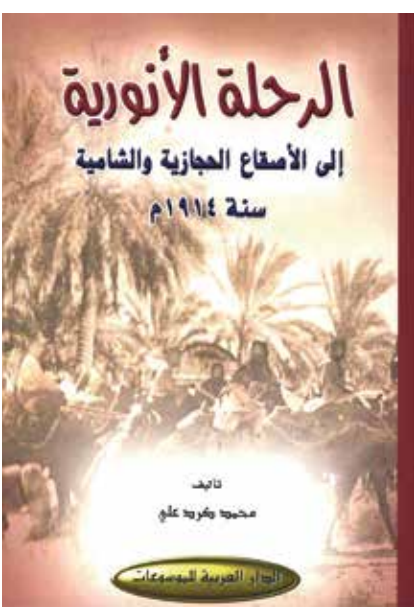
# رحلة إلى الجولان والحولة

## محمد كرد علي مقتنياً أثر الرحالة الغربيين

### بحيرة الحولة

بعد ذلك يصف بحيرة الحولة فيقول: «إنها المعروفة في الكتب المقدسة بمياه ميروم، هكذا يسميها الرومان، وأما اليونان فيسمونها سمخونيتس، واسمها عند العرب الحولة أو الملاحه أو بحر بانياس، قال ابن فضل الله: وأما بلاد صدف فحدها من القبله الغور حيث جسر الصنيرة من وراء طبرية، ومن شرق الملاحه الفاصلة بين بلاد الشقيف وبين حولة بانياس، ويفهم من هذا أن الملاحه هي غير بحيرة الحولة، وهي حوض من الماء على شكل زاوية إلا قليلاً يجري منها الأردن، عمقها من 3 إلى 5 أمتار، وفيها طيور مائية كثيرة كالبط ونحوه، ويكاد لا يدخل إليها من جهة الشمال لكثرتها، وكذلك لكثرة النبات المعروف بالبردي النابت على ضفافها، ولا سيما الضفة الشمالية، ويتألف من السهل في شمالي البحيرة حوض كبير منظم في الجملة؛ عرضه نحو ساعتين ومعظم هذا الوادي العميق يحتوي على الأكثر على بطائح وتساء والصحة هناك، ولاسيما بعد جفاف قليل من تلك البطائح التي تتخللها عدة قرى». أما حدود الحولة فيحددّها كرد علي بقوله: «قبله: الطريق الفاصل بين نعران إلى جسر بنات يعقوب إلى قطانة والتليل، ومن الغرب الجاعونة والملاحه والخالصه، ويمتد إلى ابل القمع، وشمالاً مزرعة المارية وجسر صريد المتصل بمزرعة حلتا والمحروقة ومغر الشباعنة وبانياس من سفح جبل الشيخ، وشرقاً عين فيت وخريبة السمن والمفتخرة وغرابة والدرداره».

### قلعة الصبية



أنشأ هيرودس في بانياس معبداً على اسم أغسطس، وأنجز ابنه فيليبس بناء هذه المدينة وسماها قيصرية فيليبس، تمييزاً لها عن قيصرية فلسطين، وقد سُمّها هيرودس أغريبا الثاني وسَمّاها نيرونياس، وهو اسم أطلق عليها مدة قليلة من الزمن، وكان فيها منذ القرن السادس أسقفية تابعة للكرسي الأنطاكي، واستولى عليها الصليبيون لما فتحوا هذه البلاد. وحول قلعة الصبية يقول: «لم يبق اليوم منها سوى أنقاضها. وأكثر ما فيها إلى الآن من الكتابات العربية من القرن السابع. والإطلال من قلعتها من أجمل مناظر سورية، لأنها تشرف من جهة على قسم من بلاد الجولان، وأرض الحولة، وبلاد الشقيف، وبلاد الأردن».

# قبيلة الفضل وأميرها

الأمير حاكم مطلق في عشيرته، عرب الفضل المؤلفة من نحو 1500 بيت كما قال لي أحد أفرادها، ولا يشاركه في ملكها سوى شيخ الهوادة وبعض البحاترة، وهم عبارة عن 180 بيتاً يملكون جزءاً صغيراً منها، ومن عشائر الفضل: العجارمة والربيع والفاعور، وجميعها كلها اسم الفضل، وكلهم رحالة أو متنقلون، ولكن رحلتهم في أرضهم لا يتعدونها إلى القاصية، كما يرحل عرب بني صخر والروالة مثلاً. وأميرهم يدفع ما على أراضيه من الأعشار الخفيفة، وجماعته معفون من الخدمة العسكرية، ليسوا مع أميرهم كصاحب أرض مع فلاحيه على ما هي عليه الحال مثلاً في الغوطة والمرج وقلمون ووادي العجم والجولان، وخدمون أرضه ويقاسمهم غلاتها على الخمس أو الربع، بل هو الحاكم المتحكم في أموالهم

قلعة نمرود او الصبية في مرتضات الجولان (Getty)

فلاحظ أن النفوس قليلة في هذين الإقليمين (وادي العجم وإقليم البلان)، ولا تزيد في الإحصاء الرسمي عن خمسة عشر ألف نسمة. يقول: «مع أن البلاد تؤوي مائتي ألف وأكثر، ترى الهجرة أيضاً إلى أميركا تقلال نفوسها سنة عن سنة. وسكان هذه البلاد أخلاط بمذاهبهم، فيهم المسلمون السنة، ومسيحيون روم وكاثوليك وبروتستانت، ودروز، والدروز أكثرهم مضاءً وإقداماً على العمل، ويليهم المسيحيون ثم المسلمون، فكان هؤلاء (يقصد المسلمين) بكفيهم من المفاخر أن تكون حكومتهم منهم، ولذلك جعلوا اعتمادهم عليها، وكان عليهم أن يعولوا على تماسكهم ومضائهم، كما فعل جيرانهم في اعتمادهم على أنفسهم».

#### الجولان والقنيطرة

في اليوم الثالث من الرحلة و«كان معتل السسيم صافي الأديم»، كما يقول، ساروا إلى قرية جناتا الخشب، فباتوا في بيت الزعيم الوطني أحمد مريود، ومن هناك توجهوا إلى القنيطرة قاعدة الجولان.

وبعد أن يقدم تلخيصاً لتاريخ الجولان وموقعه الجغرافي، معتمداً على مراجع عربية وأجنبية، يقول: «ولعل علماء الآثار يوفقون في المستقبل إلى الظفر بعاديات لغسان في الجولان، كما ظفروا بقليل منها في حوران، ولا سيما في جبل بني هلال الذي كان يعرف قديماً بجبل الريان لكثرة مياهه، ويعرف اليوم بجبل حوران، أو جبل الدروز، لأن الغساسنة ملكوا هذه الديار، وبسطوا سلطانهم أيضاً على دمشق قبل الإسلام، وافتتح الجولان شرحبيل بن حسنة وورد ذكرها في شعر حسان بن ثابت».

وفي حديثه عن مدينة القنيطرة يقول: «إنها قاعدة الجولان اليوم». وبلغت الأنظار إلى أنها كانت صغيرة جداً «قبل أن ينزلها مهاجرة الجراكسة والداغستانيّن منذ زهاء ثلاثين سنة». ويضيف قائلاً: «الجولان اليوم أو قضاء القنيطرة هو ثلاث نواح، ناحية الشعراء؛ وهي عبارة عن مجدل شمس، وجباتا الزيت، وبانياس، وعين قنية، وعين فيت، وزعورة، ومغر الشباعنة، والغجر، وخان الدوير، ومزارع الغضل. هذا ما كان منها إلى جبل الشيخ أقرب. وناحية الجولان؛ وفيها قرى الجركس، وأهملها النصوره، وعين الزيوان، والصرّمان، والخشنية، وعشيرة الترحمان ومزارعها، وعشيرة الهوادنة، والبجاترة، وجبا وعين أرينبة، وعشيرة الويسية، والقصيرين، والجعاتين، والذياب، وأراضي البطيحة ومزارعها، وتعييمات الطاعة. ولهذه العشائر مزارع وقرى تفلح فيها وتزرع. والناحية الثالثة؛ ناحية الزوية وأهم قرأها: فيق، والعال، وكفر الماء، والشجرة، وكوية، وبيت الرّأ، ومعرّبة، والمناطرة».

#### همة الشراكسة

ويقدّر كرد علي عدد مزارع الجولان وقراه بنحو مائة وستين مزرعة وقرية، ويقول: «فيها أراض جيدة في الجملة وتوجد حبوبها في الأكثر في السنين التي تقل أمطارها، أما في سني الري الكثير فإنها تغرق، فبينما تشكو الأقاليم المجاورة الشرق تشن الجولان من الحُرق، ولذلك تصلح أراضيها للتربية الماشية كثيراً، ولا تغالي إذا قلنا إنها الإقليم الوحيد الذي يصلح لهذا الغرض، كما يصلح سهل الهوات في ولاية أضنة من بلاد الأناضول أو الروم، كما كان يسميها العرب». وبلغت النظر إلى برود همة الفلاح الجولاني بسبب عدم امتلاكه الأرض، نظراً لأن نظام المشاع هو السائد، بينما يلاحظ أن الشراكسة أكثر حماساً للزراعة بسبب تخصيص أرض لكل منهم تناسب حاله وشأنه، «فأصلحها ما ساعدته مادته وقوته وخدمها على مثل ما تخدم الزراعة في البلاد التي هاجر منها، أي بلاد الروس اليوم، وبنى البيوت بالحجر والقرميد، وغرس الأشجار، وعاش في الجملة أحسن من عيشة سكان البلاد الأصليين، خصوصاً وأن المهاجرين يغلب عليهم الاقتصاد، بحيث لا تعهد عندهم المضافات المفتحة الأبواب لكل قادم، كما هي عند سكان هذه الديار من العرب، وأكثرهم يعرفون دخلهم وخرجهم، ولو سار الجولانيون الأصليون على هذه الطريقة لخدموا سيرهم، ولما افتقر الأغنياء منهم بإسرافهم إسرافاً لا يعد من الكرم في شيء، وبعبارة أوضح لا يعد فضيلة».

#### في وادي العجم وإقليم البلان

ركب محمد كرد علي ورفيق له العربية من دمشق بعد ظهر الخميس 13 نيسان/ إبريل 1911 قاصداً قطنا، مركز قضاء وادي العجم، فبات ليلته فيها، ومن هناك ركب الخيل «في يوم انقطعت أمطاره ولم تنقطع رياحه وذارياته»، وقصد إقليم البلان، بصحبة دليل، على أن يعبر منه إلى الجولان. ووصل إلى قرية بيتنما التي تخطاها وصاحبه ليجتازوا نهرها إلى كفر حور، لكن غزارة مياه النهر حالت دون عبورهم، فعادوا أدراجهم إلى بيتنما وقضوا فيها ليلتهم الثانية. وحول وادي العجم وإقليم البلان يقول: «ليس في هذا السوادي والإقليم ما يستحق الذكر من الأمور التاريخية والأثرية، فقد سكت التاريخ عن ذكر حالته في الأزمان القديمة (..) اللهم إلا ما كان من ذكر نهر وادي العج الأعظم، المسمى بنهر الأعوج، والمعروف في التوراة باسم فرفر أو فرفار أو فرفور». ويضيف: «هذا النهر يتكون من عدة عيون ومسائل تنبعث من سفوح جبل الشيخ، منها عين في بيت جن، ومن ينبوع آخر اسمه المنبج، وأم الشراطيط، ووادي الدهامية، وعين الطموسية، وعين الطيبية، وهي أجود تلك العيون، تُحسّن ماءه كما يحسن ماء عين الفيحة مياه نهر بردى باختلاطه بها، وهكذا تجري إليه عشرات من العيون ومنها بيتنما وعيون عرنة». ويشير إلى أنه صادف آثاراً قديمة من عهود الآراميين والرومانيين واليونانيين، مثل آثار بيتنما، وكفر حور، وكفر قوق، وسحبتا، وقال إنه شاهد في أرض كفر حور أربعة نواويس عظيمة نقرت على الصخر، على صورة هائلة تدل على أنها مدافن أغنياء وأمرء، لا مقابر فلاحين فقراء. وحين قام كرد علي برحلته هذه (1911) كانت وتيرة الهجرة إلى أميركا على أشدها،

قلعة نمرود او الصبية في مرتضات الجولان (Getty)

<sup>[1]</sup> كتب المؤرخ السوري الشهير محمد كرد علي عن الأقاليم السورية التي كانت تعاني من التهميش كما لم يكتب أحد قبله من رحالة وصحافيين البلاد، علماً أن هذه المناطق أشبعت بحثاً ودرساً من جانب الرحالة والمستكشفين الغربيين